٢٤ س × ٣٠ ي × ٤٥ ش

٢٤ س × ٣٠ ي × ٤٥ ش

و ٤٥ ش ، ليست دائما ثابتـــة ، تكون كذا ش « أقل أو أكثر » أما ٢٤ س × ٣٠ ي فثابتتان ..

هذه هي المعادلة ..

فيها يصغر العالم ليغـدو سجنا ضيقا ، ويتحطم الزمن فيستحيل « ثانية » ممدودة بطيئة صقيعية منبتة الجذور عن ضوء الشمس ومدار العالم .

انه المكان والزمان « الكافكاوي » ــ اللذان يأتيان اثر فرض « القضية » ، « القضية الكافكاوية » (*) .

بشكل ما الامر كذلك ..

« ٢٤ س »

« ساعة » هي ..

ساعة حصيلة أربع وعشرين ساعة ، من الساعات الجوفاء .. نسغها مهدور الامتلاء .. وهـذا النـزيف الذي تمّ ، وخلّف زمنا جثة .. القاتل يسأل عنـــه كافكا ؟..

دعونا من القضية فقد غدت بدهية .. بدهيـــة لا تدخل في معضلة المعادلة .

ساعة لا تتكرر في أربع وعشرين مـــن مناسبات تكرارها الاضافي كما يجب .. و « نحن » الذين نعيش موات الزمن في حياة هذه الساعة ــ الفجر عندنا لا تبزغ شمسه في الافق .. فليس ثمة أفق ولا سماء ولا أرض حيث نعيش .

هل تكون سلسلة الجدران خلف الجدران أفقا ؟ هل تكون بقعة محدودة من السماء ، مغروزة كالسقف المهشم سماء ؟ هل يكون ذلك الاسمنت كالقبر الثاوي يجثم فوق البسيطة أرضا ؟

والنور الذي يفيض من نهر الابدية لا يغمر (الا لاوقات محدودة تحديدا غير محدد) وجودنا .. النور ههنا مسلّط دائما فوق رؤوسنا ، وعلى أعيننا .. دائما نحن تحت مجهر هـــذا النور المستنقع .. خـــلا تلك الاوقات الآنفة الذكر .. حيـــن تصلصل المفاتيح في القفل الكبير وتفتح الاشباك ، وحينها يكون توقيت العالم قد بلغ رأد الضحى .

الى « الفورة » .. نهرع حاملين أباريق الماء .. وتدوي في الساحات المزروعة جدرانا وقضبانا ، أسماء المطلوبين الى المحاكمة ذاك اليوم من خلال الميكروفونات المبثوثة هنا وهناك .. ثم بعد قليل تدوي أسماء الذين انتهت آجال مددهم بالافراج .. وتتناثر عبر الارجـاء الملتوية في خارطة المكان المجزأة لحد التهشيم ، يتناثـر العديد من بسطات المبيعات (دخان ومعلبات ومعاجيـن وما الى ذلك) .. والمقاهي (الشاي والقهوة ..) .

جيئة وذهابا ، ذهابا وجيئـة ، بدون غرض .. مراوحة في ذات المكان .. هكذا نلوب جميعا .. القضية كما أسلفنا ، لنغضّ النظر عنها ، فلقد غدت بدهية .. كافكاوية قلنا ؟.. كافكاوية ليستبالطبع بالمعنىالانساني الشامل فيموقعه الوجودي فياطار الزمان والمكان القدر ــ لا لا .. هي كافكاوية بالحق خاصة بعالمنا القومي ، ويقال انها تشمـــل أيضا ما يسمونه العالم النـــامي (تجاوزا) ، أو العالم الثالث (أي العالم الذي لا يملك شيئا في هذه الدنيا ، بعد أن تقاسماه عالمان يصطرعان على سيادته بالكامل) ..

القضية اذن ، ولنطرح ذلك الآن نهائيا ، كافكاوية .. وكافكاوية بهذا المعنى الاجتماعي ، لا بالمعنىالانساني الكوني .. انه قهر عبودي ناتج الاستبدادية وانحطـاط وعي المجتمع وبنيته .

نحن نجهر : ليست حالتنا الا شكلا مكثفا ، مكثفا لا غير ــ لما خلف الجدران التي تطوينا ، لكل ما يقـــع لحدودنا في الخارج .. وليس في ذلك رتة عزاء .. نحن لا نشمت بالآخرين منا المكبلين بالاصفاد وبالجدران اللامرئية .. نحن أيضا لسنا على قناعة فحسب ، وانما على دراية بهذا التطابق .. ولا بـد ان الآخرين هنـاك بدأوا يتحسسون ذلك . لا بأس ، سيأتي حين ، قـد لا يطول ، يتطور هذا الاحساس ، كما يجب ، الـــى مرحلة الادراك ، ثم الوعي .

العالم عنا محجوب .. العالم العالم حقا ، ليس ذاك اللعبة والتهريج .. من يأتون ، كل يوم ، يأتوننـا ببعض رياحه التي ما تزال بهم عالقـــة .. هنا يتجمد الجديد ويعتق ، ويتقادم عليه وعلينا الزمن ، في هـذا

الكهف ، نلبث فيه عهدا ومددا تتفاوت .. لكن أمثال هؤلاء . يظل رشحا ، العالم يدلف فيه من سطحنا دلفا.

عكرة هذه المدلوفات ، تنزّ علينا من المستنقع الكبير .. نحن في المستنقع الصغير نعلم ذلك .. فأيامهم أيضا لا تشرق عليها شموس اليوم الآن ، ومن يدري متى يمسّ شعاع شمس يومنا هذا سطح عالمنا بجدرانه الصلبة وجدرانه اللامرئية ــ أيكون ذلك بعد عقد ، بعد جيل ، بعد قرن ؟ أم قد ننقرض قبل ذلك ؟

لا تنقضي خمس ساعات من هذه الساعة الجوفاء الممتدة ــ حتى تدوي الصفارات والسماعة باعلان منع التجول .. هذه الغارة الوهمية ننوء بثقلها بكل ما يتبع اجراءات الغارة الحقة من مشاق .. نلوذ جميعا على « البرش » داخل الغرف المحشورة بنا حشرا .. والمفروض ان هذه الغارة تستديم ساعة أو قرابة ساعة، بفرض تعدادنا بعد فتح الاشباك وانطلاقنا الى الساحات خارج الغرف ، للتأكد من ان الجميع ما زالوا في الاقفاص .. انه لم يغامر أحد بمحاولة التحرر .. لكن ماذا نفعل والسجانون لا يتقنون التعداد ، فتمضي ساعة أخرى ، وساعة ثالثة ، وأحيانا وقتا أطول حتى « يضبط العدد » .. بعدها تفتح الاشباك ثانية ولم يتبقّ على موعد اغلاقها الثاني والاخير الا حوالي ساعة أو ساعتين ان طالت .

بعضنا يقول ان هذه اللخبطة في التعداد مقصودة، وبعضنا لا يقول ذلك .. على أية حال ، لعلنا ههنا نستطيع أن نقول ما قلناه عن القضية بحذافيرها ، القضية الاصل التي من أجلها مهما تنوعت أسباب أسرنا، رمينا في السجن .. والقضية التي من أجلها يعيش الآخرون منا خارج القفص ــ في قفص شبيه ، لا مرئي. اذن نستطيع القول : دعونا نغضّ النظر عن هذه القضية، ففيها أيضا كافكاوية خاصة بنا ، خصوصية بائسة تفتقد ذلك التبجيل الذي يتضمنه التمرد الانساني على قضيته القدرية التي وجد نفسه هكذا في وسطها ، بدون أن يكون له فيها خيار .

جيئة وذهابا ، ذهابا وجيئة ، بدون غرض ــ هذا العرض المجاني تغدو له في هذه الجولة الثانية ، قيمة أكثر .. تتقاذفنا الساحات طوال هذه الفترة ، وتحلو زياراتنا بعضنا بعضا .. في لقاءات كهذه ليس ثمة مجاملات كتلك التي توجد عند سوانا .. قد تكون خرساء أو شبه خرساء ، لكنها صميمية ، صافية ، حقيقية ، متعاطفة ، مشحونة بأرق الوجدانات وأعمق المشاعر .. فكل شيء ههنا جدي ، صلب ، صامت .. لا مجال للضجيج ــ حتى الهتاف العالي هو صرخة نحو الذات وأصداء في مسامع الحضور ، توازي مناجاة الفرد لنفسه .. محادثة الشخص الجوّانية .. توحّد السامع والمسموع ، اندمج المتكلم والمخاطب .. هي وحدة نائية عن أصقاع العالم المأهولة ، ولعبته المسرحية .

حتى الشجار ، سوء التفاهم ، الصراع ولو أسال دما .. حتى كل هذا ليس فيه حقد تجاه أي آخر معين ، بل أكثر ما يكون شبيها بالتوتر والارتباك والقلق النفسي .. انه مصاب عام ينفذ الى دخيلتنا جميعا .. ما عاد يرهب أكثر ــ فان كان القصاص ، عدلا أم ظلما ، يترصد لمن في الخارج ، فهنا القصاص هو الحالة القائمة .. فليس من بعد لا وعد يحفز ، ولا وعيد يردع .. انها حياة نعانق فيها كآبة مصيرنا بقوة صراع البقاء الاصيلة في الغرائز ، وقد ننتظر بارقة رجاء في بعض الاحيان ، وغالبا تهيمن علينا استكانة لا تخلو من حكمة ما دام ليس في اليد حيلة ، ونلجأ الى كل أساليب الفرح المتاحة .. هذا وهم ؟.. نحن نعلم.. أن نعلم وهمية فرحنا ، خرافة علمنا ، خيبتنا .. أن نعلم كل ذلك ، فهذا هو اللاوهم أيضا .. هذا هو الجدار الحقيقي الذي نحن عليه مصلوبون.. نواجهه .. كما نجابه جدراننا الصمّاء المطبقة آناء الليل وأطراف النهار علينا.. هل تتركونا نتفلسف، ونحن هنا نتفلسف أحيانا .. اذن نقول : نحن المحرومين من عطاء الحياة الطبيعية ، من نور الشمس الذي يفيض في أرجاء الكون اللامتناهي والفضاء اللامحدود .. نحن المحرومين من نسمة الهواء الطليقة في رحاب كوكبنا الارضي .. نحن المحرومين من العشق والحب والانجاب .. نحن المحرومين من الحضور في وجودنا الميلاد والموت وما بينهما من حرية وفعل وفكر وارادة .. نحن نحن نحن : نكتشف المهزلة الاكبر .. نكتشف الخدعة الادهى . نكتشف سجنكم وعزلتكم ، نكتشف كل الترهات .. فهل تأتون ؟.. فهذا هو المطهر .. نحرق هنا كل الاوراق الصفراء .. والسوداء .. نقتل موتنا وعدمنا .. ونبعث من جديد في قلب العصر ، أوراقنا البيضاء والناصعة.. بدمنا ، وبشعاع الفكر الذي انقذناه من هبوب الجهل ، نبدأ في خطّ كلماتنا ..

« ٣٠ ي »

« يوم » هو ..

يوم حصيلة ثلاثين من هذه الايام الجوفاء .. نسفها مهدور الامتلاء .. وهذا النزيف الذي تمّ ، وخلّف زمنا جثة .. القاتل يسأل عنه كافكا ؟.. دعونا من القضية ، نؤكد ونكرر ، فقد غدت بدهية ، بدهية لا تدخل في معضلة المعادلة ..

يوم لا يتكرر في ثلاثين من مناسبات تكراره الاضافي كما يجب .. ونحن الذين نعيش موات الزمن في حياة هذا اليوم ــ ليس ثمة فجر ولا غروب لدينا.. فعالمنا لا يدور حول نفسه قبالة الشمس كما هي الارض

وهي ترحل حول الشمس سنويا .. عالمنا يدور حول نفسه . ويدور سنويا حول نفسه أيضا .. والحق انه يدار لا يدور ..
الادارة من تديره ..
الادارة ؟؟..

نشعر تجاهها بمزيج معقد من الكراهية ومن الاشفاق أحيانا !.. الكراهية من حقنا أن نشعرها ، فهؤلاء من هم حتى يكونوا سجانينا ؟.. ثم نتذكر ان لهم همومهم الانسانية : لهم عائلات ، لهم زوجة وأطفال وأشقاء وأصدقاء .. وهم مضطرون للعمل حتى يعيشوا .. وهم ، بدورهم ، مدارين من قبل سواهم..

ونفكر : وغيرهم يديرونهم .. ثم أولئك أيضا مدارون .. سلسلة الافكار تقودنا الى « الرأس » .. هناك اذن رأس الجريمة .. ونستطيع هنا أن ننهي تفكيرنا بهذه المسألة لو شئنا ـ ولكننا نستطيع ، لو شئنا أيضا ، أن نتابع حلقاتها .. فهذا الرأس بالحق مدار .. رأس يدور في فلك رأس أكبر وأعتى ..

هناك بعيدا اذن ، الرأس الذي يحطم رؤوسنا هنا .. ونحن جميعا « رؤوس يوحنا المعمدان » التي تقدم لذاك على طبق من فضة ..

نتحادث كثيرا في هذه الشؤون ، وبعضنا من المطلعين أخبرونا : ان ذاك الرأس الاكبر البعيد ، والذي هو بمثابة الشمس (لكنه مطفأ ومدلهمّ الظلمة.. والظلم) التي تحرك حولها كثيرا من بلدان العالم ، يدفع لكل رأس من هذه البلدان ثمن طأطأة هامات الرؤوس التي تحاول التحديق في الشمس ، والذين يصرّون ولا يرعوون يقذفون خلف الجدران والقضبان .

دعونا من القضية اتفقنا ، فقد غدت بدهية ، بدهية لا تدخل في معضلة المعادلة ..

من خلف بعض الجدران كانت هضبة ، متسربلة ببعض البيوتات المتواضعة ، ويشقها دربان ترابيان يصلان أهل الحي فيما بينهم ، تلوح لناظرينا .. في فسحتنا حين نخرج من الزنازن الى الساحات ، كنا نقف متطلعين هذا الصوب .. حين يكون النهار في بداياته ، كنا نشاهد عربة تقف أمام أحد تلك البيوت ، وكنا نشاهدها حين تتحرك . لا يبلغنا بالطبع هدير محركها ، ولا نرى سائقها في المقعد ، الا وهو يفتح الباب ، يبدو ضئيلا من بعد .. وكنا نشاهد الاطفال ، حينما يغدون الى مدارسهم ويعودون ، وحينما يكونون يلهون ويلعبون .

من خلف بعض الجدران الاخرى ، كان الطريق الرئيسي يلوح لنا بعضه معلقا على شكل قوس في الفضاء ، تعبره العربات الصغيرة .. والكبيرة .. وفي أعلى هذا القوس تتبدى بضعة عمارات فخمة بخلاف بيوتات المنظر السالف الذكر المتداعية .. وكان هذا المنظر نائيا بالاضافة الى تساميه ، بخلاف المنظر السابق المتاخم لنا .

لا ترى أعيننا غير ذلك حيثما نقبنا وأدرنا بصرنا عبر الجدران المتطاولة التي تعلوها الحراسات المشددة..

تثيرنا هذه المناظر. تحرك شهيتنا للعالم ـ أتعرفون كيف ؟.. كما يثير فخذ امرأة ، أو ذراعها البضّ ، أو ثديها الرائع المستدير ، وقد انحسر عنه الثوب قليلا ، شهية رجل محروم ، فيجيش في أعصابه الدم الحار ، ويبتعث فيه حرمانه الشرس غصة وألما مبرحا .

حين تزول الحدود الى هذا الحد بين الليل والنهار لدرجة الاقحاء ، حين نكون أحياء في الموت ، حين يقفز الحاضر ويغيب الآتي .. يهجم الماضي الذي أفل ، كالسراب الخادع ، ليغشي وجهنا الذي أخذت تتطاير ملامحه .. حالة أشبه ما تكون بأحلام اليقظة ، اليقظة لشيء ما كان ذات يوم .. فالبحث عن الملموس والواقعي يستحوذ على من فلتت من بين يديه هذه الامور .. فحين يرين الصمت على أي منا ، كانت الذكريات تنطلق من عقالها .. لعله نوع من الدفاع عن النفس ، من التثبت من الوجود الذي عطّل ، من الاستيقان بالامتداد في العالم .

أيام الزيارات كانت تساعدنا بلا ريب على تحقيق ذلك بشكل ما ، يخلو من الراحة النفسية المتأتية من الثقة بصحة مجريات الامور ..

هؤلاء الناس ، الذين يزورونا ، هم بعضنا الذي لم يقع بعد في شباك السجن الحديدية وجدرانه الحجرية السميكة .. هم بدون شك واقعون في شرك السجن اللامرئي .. لكنه بعد واحد للسجن ، ونحن مأسورون في بعديه .. فهم ، منطقيا ، أكثر تحررا .. أهذا أمر بحاجة الى جدل ومنطق ؟.. فها هم يقفون في الخارج بدون أصفاد تقيد رسغيهما) وعلى فكرة ، فهذه الاصفاد الحديدية مطبوع عليها انها صناعة بلاد الرأس الاكبر والاعتى البعيدة) .. وها هم يمشون عبر كل الجدران المشادة في طول البلد وعرضها ، وكما يقولون: « نمشي الحيط الحيط ونقول يا رب الستيرة » .. والجدران كما نعلم هي نفسها الحيطان .. لكن ربما تعني الحيطان القسم اللامرئي من السجن ـ وتعني الجدران القسم المكشوف من السجن ، ولهذا فلم تعد تطلب بمحاذاته الستيرة ..

وهؤلاء الزوار هم أحبتنا خاصة ، من كل ذوينا في سجنهم اللامرئي .. هم الذين يصلوننا ، والذين يمدون الينا أيديهم عبر القضبان ، والذين ينقلون الينا عبر نظراتهم نور الشمس الذي نفتقد ، ونسمة الهواء التي تعزّ .. نافذتنا على العالم المسدود أمامنا .

هكذا نمنح طاقة أزخم للدفاع عن أنفسنا ، للتثبت من الوجود المعطوب ، للاستيقان بامتداد العالم ..

تشحن لقاءاتنا اثر ذلك بومضــة اشراق ، تعبق برائحة العالم . تنتشي بالوصال ..

الافئدة التي كــانت تطير في سموات الحب ، تتكسر اجنحتها وهي تصطفق تحاول الانطلاق فتسقط مضمخة بالجراحات .. وتصدر غناء مؤسيا تنقطع له نياط القلوب « الطوفان يتعالى غناء نشدوه ، يغمر دنيانا السد ، ولا من يسمع .. أغانينا حبيسة مقيــدة عن الوصول .. كشكاوانا تماما .

ورعشة الدفق التي تتحدر في الاصلاب ، تهزنا زلزالا لا نتداعى له وليس الا في الخيال نصفنــا الذي يسند .. ارثنا الانساني والحياتي عبر الدهور ، يسفح في « الفورة » وفي « الحمامات » .. تصرخ ذرارينــا ملتاعة وهي تختنق في الغائط .. نفوط على نسلنـــا المقدور ولما يزل بعد في مرحلة تكوينه الذي هو بحاجة الى الرحم .. وطننـــا الرحم .. ها نحن الآباء نختنق أيضا ، نقصا لنسمة من هوائه العليل ، نقصا لذرة من شعاع شمسه الدافئة ، اشتياقا ليــد الاخ والرفيق ، لصدر الاب ، لحضن الام ، لعناق الحبيبة ، لوصــال الزوجــة ..

ونقيم أعراسا لاعياد العالم .. عيد الام .. عيــد العمال.. عيد الثورة .. عيد وعيد.. ونهزج لانتصارات الخير في أية بقعة من خارطة العـــالم .. نفرح نفرح كالاطفال .. وحين يغيض هذا المد فيما بعد ، نسخــر نحن أمام بعضنا ونردد : « على بال مين يللي بترقص في العتمة » .. مزورا عن أشعة الشمس تجلل السجـــن الظلمة ، وعتمته الوصمة للانسانية أحلك ادلهمامــا .. انه عارنا البشري حتى اليوم .

أعياد ميلاد أحدنا .. أعياد زواجه .. ذكرياتــه الوقفة عموما في مسار عمره الخـــالي .. يقف واحدنا أمامها كالمسطول .. جنائزيا يكون الاحتفال لا بد ، والا ما معنى الميلاد ؟ ما معنى الزواج ؟ ما معنى كل ما الــى ذلك ــ وليس ثمة انخراط في امتداد الحياة ، وليس ثمة اندماج في نصفنا الآخر المنهوب .. هي لصوصية سرقت منا الحياة ، نهبت منا الأم والشقيقة والعشيقة والحبيبة والزوجة والابنة .. سلبتنا الاهل .. أيـــة جريمة يمكن أن تناهز هذا الجرم ؟.. ورغـــم ذلك ، وحين يكون ذاك اليوم ، والمــوكب الجنائزي يمر ويمر في سريرة أحدنا وأعماقه ــ نضع الحلوى أمامنا ، ونغني ، ونهنىء ونبتسم ونضحك .. مكابرة ؟.. نعم هي مكابرة تجاه الواقع .. لكنها تند أكيدا عن كبرياء ضافية لن تفقدها نفوسنا ..

في المطالعة نتطـــابق مع أنفسنا كلية .. نطـــالع كثيـــرا ..

في هذه السكونية الجياشة التي تتخلل صفحــات الكتاب ، المتساوقة مــع السكونية الجياشة التي تتخلل وجودنا الذي نعيشه .. يتبدى العالم معلقا ، كما هو نحن تماما ، السجن جوهره .. العالم سجين بين دفتي كتاب ، وسجين في أقداره الحتميـــــة التي لا مناص لتغييرها : ونحن سجنــــاء بين الجدران والقضبان ، وسجناء لا مناص من تقبلنا الاذعـــان .. العالم بنفس الوقت جياش عبر الكتاب فكرا وحدثا ، كما نحن نجيش داخل السجن .. جيشاننا بدون جدوى .. منفصلين عن السكونية ــ نفقد اللون والطعم والرائحة ... فــي المطالعة وفي وجودنا : نحن على مسافة لا تتدارك بين الحدث والانفعال ، ثمة هوة متردية بين الفكر والعمل ، بين الوعي والارادة .. بيننا وبين الحياة .

الاسمنت حيطان .. الاسمنت أرض .. الاسمنت الاسمنت الاسمنت ، كل ما يحيط بنا اسمنت .. يموج الاسمنت فصولا بأشعة الشمس الفارقة فيه من عليائها تنصب حبيسة في هذا الجب .. يدلف المطــر فصلا عـــلى اسمنت الجدران واسمنت الارض .. ولا زهرة تطلـــــع ، ولا عشب ينبت ، ولا نهر يجري ، ولا بحر يتلاطم ، ولا بقعة تراب نلمح .. حتى التراب ، التراب يا رب لم يشبعهم فأكلوه جميعه أم ماذا ؟!..

((٤٥ ش))

« شهر » هو ..

شهر حصيلة خمسة وأربعين من هذه الشهـــور الجوفاء .. نسفها مهدور الامتلاء.. وهذا النزيف الذي تم ، وخلف زمنا جثة .. القاتل يسأل عنه كافكــا ؟.. دعونا من القضية ، نؤكد ونكرر للمرة الاخيرة ، فهــي بدهية ، بدهية لا تدخل في معضلة المعادلة ..

شهر لا يتكرر في خمسة وأربعين مــن مناسبات تكراره الاضافي كما يجب .. ونحن الذين نعيش موات الزمن في حياة هـــذا الشهر ــ لا نستطيع أن نعتبره شهرا شمسيا ولا قمريا .. فأشباهه تفتح وتغلق خارج دورة الارض ، كما أسلفنا ، حول الشمس ... أمـــا القمر .. والنجوم .. فمطرودة .. زمننا أشبـــه لو قيس بطبيعة موجودة ، بزمن القطب المتجمد .. المتجمد الحبيس (غير الطبيعي) .

ولو شئنـــــا أن نعتبره بالمقاييس الاقتصادية ، ومعظم الناس غدوا يعدون شهورهم بانتظار استــلام رواتبهم ، ولهذا يخصتون شهر شباط (ان كان راتبهم غنيا) بالحب ، أو بالكراهية (ان كان الراتب لا يفـــي بتسديد الالتزامات) ــ نقول ، لو شئنا أن نعتبر شهرنا بهذا المقياس الاقتصادي ــ لكانت نتيجته « الصفر » ، خير برهان على شهرنا المستديم (بشهوره التي لا تتكرر اضافيا فـــي مناسبات تكرارها كما يجب) ــ كم هو مفلس ، أجوف ، فارغ ، معطل ، مستعبد ومجاني .

وبين الحين والحين ــ وتقسيم الزمـــن الرتيب المتداخل المستديم في آن معا ، يجعل مـــن الصعوبة

أن نميز معنى الحين عن الآخر ـ يعترينا ، رغم ذلك ، شعور في حالتنا ، انه ثقة بين الحين والحين ، نقف في حالتنا ، التي نعي لا غير ، انها حياة في الموت ـ حياتنا نحن في وضع مماثل ضد الحياة ... ونعي من جهة أخرى ، انها موت في الحياة ـ موتنا نحن في صراع الحياة اطلاقا ضد العدمية .. نقول ، نقف في حالتنا هذه ، لنصعق ، بما يشبه الكابوس ، بمشاهدة الموت الصارم الكامل الميئس بأمّ أعيننا ..

كالكابوس ، يقينا بين الحين والحين ، الذي قد يصدف أن يطول أو يقصر ، كنا نصعق بهذه المشاهدة :

حينما يكون العالم في منتصف الليل ذات يوم (وساعات اليد تسعفنا على تقدير الزمن في العالم) ، كانت زنزانة المقصلة يفتح بابها الحديدي المشبك ، وجلبة رجال الشرطة غير الاعتيادية تنبىء بالحدث المستطير . تزيّت المقصلة وتشحم وتنظف الزنزانة .. نظل نحن مترقبين بمحاذاة الشبك الحديدي المطبق كفكي تمساح على الزنزانة التي تبتلعنا ، لا نريم .. قلوبنا الواجفة تتطاير أسى وقلقا شفيفا مستعرا .. مع اطلالة الفجر كان أحدنا يظهر مغلول اليدين خلف ظهره مقتادا بكوكبة من الضباط والجنود والقضاة .. وشيخ دين ..

يساق الى المقصلة .. يغمّى رأسه كاملا بقناع أسود كلون الغراب .. يربط الحبل برقبته .. تؤخذ له صورة .. ثم صورة ثانية ، كما نلاحظ .. ثم يدوي صوت « الجكّ » ـ ويهوي واحدنا هذا في الهوة التي فغرت فاها من تحته لابتلاعه حينما فتح « الجكّ » فانزاحت فرجتا القاعدة الخشبية التي يعلوها .. لعلّه يصرخ ، لا بد انه يصرخ من حلاوة الروح ، حينما تطبق الحبلة على خناقه اذ يتدلى ، فتشد الحبلة متوترة بعنف ، منتفضة بحملها الثقيل الذي يدفعها الى أسفل ولم يبق لديها متسع ومزيد للامتداد والهبوط.. وتذهب صرخته في الهوّة أدراج الصمت الخانق ، الذي يلفّه حتى الابد ..

للتوّ ، بانتهاء ذلك ، يبرزون تباعا مغادرين زنزانة المقصلة : الضباط ، والقضاة ، والشيخ ، ومعظم الجنود .. يقدمون السجائر لبعضهم ، وينفثون دخانها بحبور ، ويتبادلون أحاديث لا تنمّ لا من قريب ولا من بعيد على انها ذات صلة بالحادث الذي وقع ، والذي فجيعته تطلق في نفوسنا مشاعر الغثيان الحادة الممزوجة بالحزن والغضب الفوّارين .. دقائق معدودة ، ويطل جنديان يحملان نقالة سجّي فوقها وقد لفّ ببطانية داكنة ، أحدنا الذي أعدم ..

هكذا لكأن وجودنا الذي يتتالى بصورة متعاقبة مكتظا بأحلام اليقظة .. هكذا تتخلله ـ بين الحين والحين ـ سلسلة كوابيس تصدمنا وتردّنا الى أعمق أغوار واقعنا ..

ولا ندري هل كان الامر محض صدفة أم نتيجة معينة ـ فلقد كان « التلفزيون » يكمل اطار صورة وجودنا الحلم والكابوس ..

العالم حبيسا في زنزانة التلفزيون ، متشعشعا بضوئهم المحير .. ينهمر مبرقا ، مرعدا ، في أعيننا وحواسنا ومخيلتنا ..

في التلفزيون ، على شاشته القفص : نزور العالم، « صورة » ..

العالم وهميا وسجينا .. مرتبا ، مبوبا ، كما يشاؤون هم ، الذين أعادوا خلقه ، وقدّروا مصائرنا .. وعبره أيضا ، نرحل ، كالحالمين ، في قارات ومدن وجبال وبحار وصحارى ..

برامج تنتهي ، فينتهي حلمنا .. ولا يبقى من بعد الا وجه الجدران والسقف والارضية من الاسمنت جميعا .. وخلال القضبان والاشباك الحديدية ..

نحن بعد المثابرة والاناة، والمزيد الدائم من المثابرة.. والاناة .. نفذنا من هذا الحصار.. أن تكون هذه مكابرة أيضا ، من نوع آخر ـ فمن يدري .. أما مقدار ما ندري نحن ، لاحقا ، بعد الجهد الجيد الذي نبذله في المقاساة وصراع البقاء والطموح الآمل ـ فقد بتنا نستشفّ كرتونية هذا العالم .. العالم الآخر .. المحبوسين عنه .. في حبسه .. وخرافته .. التي يعانيهما بدوره .

الخطأ يعمّ العالم ..

ونحن الذين لم يعد لدينا امكانية لاقتراف الخطأ ، لعلنا نلاحظ ذلك ونفهمه أكثر من سوانا ..

نحن الذين أوقع بنا أشد أخطاء البشرية نكرانا وجريمة ، وجردنا في هذا الوجود البائس من كل حول أو طول ، هل تخوننا حكمتنا ، حينما نلج المعترك من جديد ، فنغفل عن رؤيتنا الباهرة التي تكشّفت كما الشمس التي حرمنا منها حينما تتوسط كبد السماء .

أم اننا ، بدون أن نشعر ، سنجد أنفسنا حينذاك، قد افتقدنا سويتنا للتلاؤم مع الخارج .. أن تقتلنا الغربة ..

الحماس لا ينقصنا برسولية ، لرفد العالم الذي ينضب ..

كالسدود .. بل نحن هذه السدود .. نمتلىء ونفيض في صحارى العالم البلقع ..

تمتلىء السدود مجددا .. وتظلّ تفيض ..

من القهر والاستبداد وأخطاء البشرية الاعظم يمتلىء هذا المطهر .. ويفيض كالطوفان ، بخيره وشره ، السد السجين .

يفيض ـ عارما ، متدفقا ، حارا .. يرمي أن يبلغ حفاف العالم .. ويتناهى لاطراف الدنيا ، ويسع أشواق الانسان ورحابة فكره وارادته .

عمان ـ الاردن